المقتطف

الجزء الثاني عشر من المجلد السادس والعشرين

١ دسمبر (كانون ١) سنة ١٩٠١ — الموافق ١٨ شعبان سنة ١٣١٩

لي هنغ تشنغ وزير الصين

نعى البرق من بلاد الصين وزيرها الاكبر واشهر رجال السياسة الشرقيين بلا مراء لي هنغ تشنغ . وقد يُظَن لاول وهلة انهُ مسلسمن وهو ذو ورم مذكور بشهرة لا يستحقُّها لان حرب الصين مع اليابان فضحت ما استتر من ضعف الصين وجاء قيام البكسر فيها وتهجم الدول الاوربيَّة عليها حتى دخلوا عاصمتها عنوةً مؤيدًا لضعف سياستهِ وسياستها. ولكن ثبوت الصين امام اليابان وامام اوربا كلها وهي مثل شيخ بدين اعجزهُ الكبر والسمن عن الوقوف والحركة لأغرب من انخذالها واندحارها وبهِ يظهر دهاء وزيرها الاول وفضلهُ

وقد اطلعنا على ترجمة هذا الوزير بقلم جون رسل ينغ سفير الولايات المتحدة في بلاد الصين كتبها منذ ست سنوات فلخصنا منها ما يأتي قال

كنتُ راجعاً من اسيا سنة ١٨٧٩ برفقة الجنرال غرانت (رئيس الولايات المتحدة وقائد جيوشها في الحرب الاهلية) فذكر الرجال الذين لقيهم في تطوافهِ حول الارض ولا سيما الملوك ورجال السياسة وقال " لقيت في هذه الرحلة اربعة من العظماء بسمارك وبيكنسفيلد وغمبتا ولي هنغ تشنغ وعندي ان الاخير اعظمهم " فاعترضت عليهِ لانني كنتُ اكره سياسة بيكنسفيلد وأُعجب بفلادستون ندهِ ولكن الجنرال غرانت لم يكن يميل مع الاهواء ولا يدع هوى النفس يخرجهُ عن جادَّة الصواب ولقد بذل جهدهُ حتى لقي دوق ارجيل وجون بريت وكان يكرمهما اكراماً يقرب من العبادة لانهما كانا محازبين للولايات الشمالية على الجنوبية في الحرب الاميركية (اي كانا من حزبهِ) وقابل بيكنسفيلد مكرهاً واحترمهُ احتراماً عقلياً لا قلبياً لانهُ علم ان التاريخ سيبقي اسمهُ فوق اسم ارجيل و بريت . وقد اعرب بيكنسفيلد عن ميلهِ الى الولايات الشمالية لا حباً باهلها بل لانهُ علم ان الفوز سيكون لها وانهُ ليس من مصلحة انكلترا ان تعادي بلاداً فائزة

ولما تعرفت بلي هنغ تشنغ سنة ١٨٧٩ كان في عنفوان قوتهِ طويل القامة مهيب الطلعة بشوش الوجه برَّاق العينين يخالف وزراء المشرق في انهُ سريع الحركة كثير النشاط يصافح من يسلم عليهِ و يشد على يدهِ كما يفعل الانكليز . و يقال انهُ يغتاظ احياناً فيضطرُّ مجالسوهُ ان يهربوا من وجههِ اما انا فلم ارَهُ في هذه الحال قط بل كنتُ اراهُ دائماً جامعاً بين الدعة والحزم انيس المحضر يأنس بمن يحدثهُ الاحاديث الطويلة ويقصُّ عليهِ نوادر الاخبار ولا سيما اخبار الرجال العظام . وهو واسع الاطلاع قرأ كتاب حقوق الدول الذي ألفهُ هوثن وقد ترجم الى اللغة الصينية واعطاني نسخةً منهُ مرةً وقال لي ارني اين يقول هذا المؤلف ان للعبد حقوقاً في اميركا اكثر مما للصيني . قال ذلك جواباً عن امرٍ طلبتهُ منهُ ولم يكن راضياً عن مهاجرة الصينيين الى اميركا ولا كان يود ان يحميهم فيها ولمحتُ الى ذلك تلميحاً فنظر اليَّ ضاحكاً ولم يقل شيئاً . وهذه هي المرَّة الوحيدة التي ذاكرتهُ فيها في امر المهاجرة

وهو كريم كثير التودُّد لزائريهِ يبذل جهدهُ لكي يخرجوا من مجلسهِ راضين وقد يكتشف بفراسته ما يريدونهُ ويعرضهُ عليهم عرضاً قبلما يطلبونهُ . و يرسل يمنهُ مسافة خمسين ميلاً اكراماً لزوجات السفراء ولا ينقطع عن الشغل ولا يقنع بغير الوقوف على كل ما يجري في البلاد حتى التلغرافات التي ترد على الناس ترسل صورتها اليهِ ليطَّلع عليها واذا تعذَّر عليهِ حل شيء

فيها استدعى من أُرسلت اليهِ وطلب منهُ حلَّهُ . ولما رأى السفراء منهُ ذلك قالوا لا يقلُّ الحديد الاَّ الحديد وصاروا اذا اعتاص عليهم امر يبعثون تلغرافات سرية الى امراء البحر ليكونوا على اهبة فيطَّلع على صورتها خلسةً ويتلافى الشر قبل وقوعهِ وهو يحسب انهُ غلبهم في الدهاء ولا يعلم انهُ المغلوب

وهو صيني قح لم يرفعهُ علمهُ واختبارهُ عن الاوهام التي يعتقدها قومهُ . ولم يتعلم لغة اجنبيَّة لكنهُ حفظ بعض الكلمات الانكليزية وهو يستعملها ضاحكاً خجلاً لانهُ يعلم انهُ لا يحسن استعمالها والتلفظ ولا يريد ان يخفي ذلك ويتظاهر بغير الواقع . والظاهر ان استخفاف كبراء الصين بالاجانب ولغاتهم هو الذي منعهُ من تعلُّم الانكليزية او الفرنسوية . ولم يجاهر بذلك قط لكي لا يغتاظ منهُ احد . وكرههُ لدول اوربا متأصل في نفسهِ لانهُ لا يرى منها الاَّ العدوان وقد يجاهر بملامتها ولا يحاذر ولا سيما اذا ذُكرت حرب الافيون التي اثارها الانكليز على الصين وتهجُّم فرنسا على التنكين وروسيا على الولايات الشمالية . وهو لا يعبأُ بالمرسلين دعاة الديانة المسيحية واما الاطباء منهم فلهم عندهُ شأن كبير ومقام رفيع وكان بودهِ ان يدخل صناعة الطب الغربية الى بلادهِ ويقول ان الاطباء هم الذين سيفتحون الباب للمرسلين اذا كان فتحهُ ممكناً . ولا يسلِّم ان المرسلين آتون لغاية دينية محضة لانهُ لا يعقل عند الصينيين ان احداً يهاجر من بلادهِ ويذهب الى بلاد بعيدة وشعوب غريبة لكي يعلمهم ويدربهم وليس لهُ من وراء ذلك منفعة ذاتية . ويقولون ان المرسل الذي يحمل الانجيل في يدهِ هو رائد الجندي الذي يشهر السيف و يصوِّب المدفع والتاجر الذي يأتي بالافيون ويكتسب الاموال وان دعاة الدين هم الذين دكوا حصون تاكو واضطروا الصينيين الى ابتياع الافيون

والافيون اكره شيء عليهِ وهو عندهُ المصيبة الكبرى على الصين لانهُ نزع احلام رجالها وحطَّهم الى ادنى دركات الذل . وهو يقول ان انكلترا اضطرتنا الى ابتياع الافيون منها اضطراراً لكي تملأ خزائن الهند وتستطيع الانفاق على حكومتها وان الصين تدفع ثمن الافيون الذي يرد اليها اكثر مما تنقد من ثمن الحرير الذي يصدر منها . وقلتُ لهُ مرةً ان زراعة الافيون آخذة في الانتشار في بلاد الصين نفسها وانهُ اذا شاء منع هذا الشر فليبدأ ببلادهِ فقال كلاَّ بل انا اعضد الناس على زرع الافيون لكي اميت تجارة الهند بهِ ومتى ماتت وابطل الهنود زرعهُ فبامر واحد من السلطان ابطل زرعهُ من كل بلاد الصين واعيد الارض لزرع الارز والحنطة

وهو صعب المراس لا تسهل معاملتهُ لانهُ يقلِّب الامور و يطيل نظرهُ فيها قبلما يبت

حكمهُ ولا يؤخذ على غرَّة ولا يخفى عليهِ شيء من مواقع الضعف في ما يُعرَض عليهِ ولا يسلّم تسليماً اعمى ولا يقبل شيئاً ما لم يزنهُ بميزان العقل ويجدهُ خالياً من كل شائبة لكنهُ صادق الوعد اذا قال قولاً لم يرجع فيهِ واذا اتفق معك على شيء قام بهِ

ولم يرَ من الاجانب احتفالاً بشأنهِ مع ما ابداهُ لهم من التودُّد كانهم يحسبون ان لا فلاح لهم الاَّ اذا غاضبوا الوطنيين كما فعل اخوانهم في بلاد الهند مع ان الصينيين يخالفون الهنود في ذلك لان ما اعتادهُ الهنود من الذل قروناً كثيرة لم يرَ الصينيون شيئاً منهُ . فلما رأى احجام الاجانب عنهُ نفر منهم ولم يعُد يتودَّد اليهم

وقد غاظهُ اقتداء اليابانيين بالاوربيين وراقب اصلاحهم لمدارسهم واقتفاءهم خطوات الاوربيين في اصلاح جنديتهم وبحريتهم بعين الغيرة بل بعين الكراهة لانهُ من اشد الناس احتفاظاً بالعوائد القديمة وولدت فيهِ هذه الكراهة الاحتقار لليابانيين (ولعلَّهُ عدل عن رأيهِ بعد الحرب الاخيرة بين الصين واليابان والاَّ فهو شديد الغرور) ولكنها لم تحملهُ على مجانبة السلم والجنوح اليهِ ولم يقبل بمحاربة اليابان الاَّ وهو معتقد ان الصين تستطيع ان تمحو آثارها عن وجهِ البسيطة . ولما نشبت الحرب بين فرنسا والصين قبل ذلك ورغبت فرنسا الى اليابان في ان تعاونها وابت اليابان ذلك بسعي سفيرها في الصين عرف لها هذا الجميل ثم ارسلت اليابان وفداً الى الصين برئاسة الكونت ايتو لتؤكد لها صدق وداده فرحَّب بهِ وقابلهُ بالاكرام وحسب ان سياستهُ غلبت سياسة اوربا

ذاكرتهُ مراراً في شأن هذا الوفد وذكَّرتهُ بنصيحة الجنرال غرانت الاخيرة لهُ وهي ان يخطب وداد اليابان و يبقى على تمام الوئام معها لان ذلك لازم لحفظ بلادهِ وتقدُّمها ونصحت لهُ ان يردَّ زيارة الوفد الياباني بنفسهِ فيمضي الى بلاد اليابان ويرى اليابانيين في بلادهم ويقف على احوالهم وأكَّدت لهُ ان الميكادو (امبراطور اليابان) يكرم وفادتهُ ويرحّب بهِ فتتمكن ربط الوئام بين البلادين. وعندي انهُ لو فعل حسب نصيحتي ما وقعت الحرب بين الصين واليابان

وكان ينظر الى الولايات المتحدة الاميركية نظر الصداقة والوداد ويقول انها الحكومة الوحيدة التي لا مأرب لها في اجتياح الصين وان مصلحة الاميركيين تقضي عليهم بمصادقة الصين ولذلك لا توجس منهم شرًّا. وكان يتمنى ان يكون بينهُ وبيننا عهود وروابط تجارية محكمة ولو مالت كفة الربح نحونا . وباع شركة البواخر الصينية التجارية للاميركيين قائلاً اذا لم تستطع هذه البواخر ان ترفع العلَم الصيني فلا بود ان ترفع الاَّ العلَم الاميركي. وكأنهُ لحظ اننا عدلنا عن سياستنا القديمة سياسة الانفراد مع انكلترا في كلِّ شيء سواء كان لنا فيهِ مصلحة

او لم يكن ما دام فيهِ مصلحة لانكلترا وصرنا نوافق انكلترا على ما لنا فيهِ مصلحة فقط فسرَّهُ ذلك وصوَّب سياستنا وصار يعرض علينا كل مسألة يقع الخلاف بيننا وبينهُ فيها لنحلها بطريقة غير رسمية . ولا يقيم في بكين بل في تينتسين وهي تبعد عن بكين ثمانين ميلاً لكنهُ كان يعرف كل ما يدور في وزارة الخارجية من المذاكرات والمداولات بينها وبين السفراء ولا يبتُّ امرٌ فيها الاَّ برأيهِ واذا اعتاصت مسألة ذهب وزير الخارجية اليهِ بنفسهِ وحلَّ المشكل معهُ

ومما يمتاز بهِ الصينيون عن امم الارض اكرامهم العظيم لوالديهم حتى اذا مات احد الوالدين اضطرَّ اولادهما ان يتركوا مناصبهم كلها والقابهم ويذهبوا الى القبر ويلبسوا المسوح والرماد كل مدة المناحة . ولما كنت سفيراً في الصين كان السفراء يتوقعون موت ام لي هنغ تشنغ لانها كانت في التسعين من عمرها وموتها يقضي عليهِ بالاستعفاء من منصبهِ والانقطاع عن الاشغال السياسيَّة

وتوفيت امهُ فترك منصبهُ واسرع اليها وتبعهُ اخوهُ وهو والي ووتشانغ فتنفس خصومهُ الصعداء وحسبوا ان الجو قد خلا لهم . واذا بارادة سنيَّة صدرت من ملك الصين تأمرهُ بترك الحداد على امهِ والرجوع الى منصبهِ بعد ثلاثة اشهر . امرٌ لا مثيل لهُ في تاريخ الصين ولكن امر الملك مقدَّس عندهم ولا بدَّ من طاعتهِ فترك القبر وعاد الى الولاية

ولما عاد كنت في شنغو ورأيت يخنهُ في المينا ذات يوم فوددت ان ازورهُ واعزيهُ عن وفاة امهِ وبعثت اسألهُ عما اذا كان الحداد لا يمنعهُ من مقابلتي فجاء في رئيس حرسهِ يقول انهُ يودُّ مقابلتي ويدعوني اليهِ . ولم يكن يخطر ببالي شيء عن المسح والرماد حتى رأيتهُ فوجدتهُ واقفاً كالخيال لابساً ثوباً من اخشن ما يكون وقد امتنع عن حلق شعرهِ ومشط الذؤابة المتدلية من رأسهِ وغضون الحزن بادية في وجههِ وراحناهُ شاحبتان كانهما ممرغتان بالرماد مع انهُ من المفرطين في نظافة ابدانهم وتنميق ثيابهم فثبت لي انهُ وهو اعظم رجل في بلاد الصين فعل ما يفعلهُ احقر رجل فيها اكراماً لامهِ ومعتقدهِ . وقابلتهُ بعد ايام في تينتسين وكان قد خلع ثوب الحداد وعاد الى حلله الفاخرة

ويمتاز هذا الوزير على اكثر رجال السياسة في انهُ عصامي لاعظامي ارتقى باستحقاقهِ لا غير وهو من عائلة حقيرة تلقى الدروس في مدارس الصين وارتقى من مدرسة الى اخرى الى ان اجيز لهُ من اعلى مدارس بكين واشتهر بالشعر والفلسفة والانشاء . والانشاء ضروري لكل من يحوز رتبة عالية في تلك البلاد فارتقى في المناصب وحدثت ثورة الصين في ايامهِ ودُعي غوردون لاخمادها ويقول الصينيون انهُ هو الذي اخمدها لا غوردون واختصم الاثنان

لأن لي نكّل برؤساء الثائرين بعدما سلّموا ويقال ان غوردون تبعهُ حينئذٍ والفرد في يدهِ قاصداً قتلهُ لانهُ نكث عهدهُ لرؤساء العصاة . ثم لما خمدت سورة غيظهِ قال ان لي كان مصيباً وانهُ لو لم يضرب اعناق اولئك العصاة لضربوا عنقهُ

وزارهُ غوردون سنة ١٨٨٠ في تينتسين وكانت روسيا تتهدَّد الصين بالحرب وكان لي راغباً في مشاهدة غوردون واستشارتهِ في هذا الخطب ويقال ان غوردون اشار عليهِ حينئذٍ ان يقوم بجنودهِ الى بكين ويخلع العائلة المالكة ويملك بدلاً منها فتزول المشاكل . فاصغى اليهِ صامتاً وكأنهُ قال في نفسهِ كيف اخون العائلة التي رقتني. ورقت اخي او قال ان ملكاً ينال مُلكهُ بسيف غوردون يبقى خاضعاً لهُ كما يخضع اقيال الهند لسادتهم الانكليز

ووصل الخبر الى بطرس برج فاقام الروس واقعدهم ورفعوا الامر الى لندن وكان غلادستون يكرهُ معاداتهم فامر غوردون بالخروج من الصين حالاً

هذه خلاصة ما كتبهُ السفير الاميركي منذ ست سنوات وتزيد على ذلك ان لي هنغ تشنغ ارتقى في المناصب حتى جُعل والياً على ولاية بتشلي التي منها مدينة بكين عاصمة الصين ورئيساً للوزراء ووزيراً للخارجية وقهرمانا للامبراطور ومديراً عاماً لتحصين السواحل الشمالية وللعمارة البحرية وعهد اليهِ في امضاء شروط الصلح مع اليابان سنة ١٨٩٥ وأُرسل مندوباً خاصاً لحضور تتويج القيصر في شهر مايو سنة ١٨٩٦ ثم شخص الى المانيا وفرنسا وانكلترا والولايات المتحدة الاميركية وكندا فاكرم الملوك والرؤساء وفادتهُ ورحب بهِ الامراء والعظماء وكان حيث يلقي عصا الترحال اكبر جاذب تندفع اليهِ افكار اهل السياسة ويتألب حولهُ مكاتبو الصحف ووكلاء الشركات البرقية لاذاعة انباء ما ينطق بهِ ويشير اليهِ في تلك العواصم الكبرى . ولم يغادر عاصمة منها الاَّ زار مصانعها ومعاملها وتفقد مشاهدها ومعالمها وخلف فيها اثراً من الحكمة والدهاء يؤثر عنهُ ويعجب منهُ

ولما رجع الى بلادهِ أُسند اليهِ منصب نظارة الخارجية ثم بُغي عليهِ وعزل سنة ٩٨ وفي نهايتها اقامتهُ الامبراطورة مندوباً لانشاء السدود على النهر الاصفر ثم عُين حاكماً لكنتون . ولما نكبت بلادهُ بفتنة البوكسر وساقت اوربا جيوشها الى بكين انتدب الى حل ما انعقد وتدارك ما فرط فابدى من الحرص على سلامة بلادهِ وترضي الدول المتعنتة ما ادهش العقول وحير الافكار . وجملة القول انهُ انتشل بلادهُ من ورطة قلَّ من قدَّر لها النجاة منها ونكَّل بكثيرين من موقدي فتنة البوكسر

وقد عاش عمراً طويلاً ثمانياً وسبعين سنة وشبع من هذه الدنيا شهرةً وعزّاً وغنىً